يستلذ ببذل المال دون الذي يبذل عن كراهه والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع ولن ترسخ
الاخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنه وما لم تترك جميع العادات
السيئه وما لم يواظب عليها مواظبة من يشتاق الى الافعال الجميله ويتنعم بها ويكره الافعال القبيحه ويتالم
بها كما قال صلى الله عليه وسلم وجعلت قرة عيني في الصلوه ومهما كانت العادات وترك
المحظورات مع كراهة واستثقال فهو النقصان ولا ينال كمال السعاده به نعم المواظبه عليه بالمجاهده
خير ولكن بالاضافه الى تركه لا بالاضافه الى فعله عن طوع ولذلك قال تعالى وانها لكبيره الا على
الخاشعين وقال عليه السلام اعبد الله في الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ثم لا يكفي
في نيل السعادة الموعوده على حسن الخلق استلذاذ الطاعه واستكراه المعصيه في زمان دون زمان
بل ينبغي ان يكون ذلك على الدوام وفي جملة العمر وكلما كان العمر اطول كانت الفضيله ارسخ واكمل
ولذلك لما سئل صلى الله عليه وسلم عن السعاده قال طول العمر في طاعه الله ولذلك كره الانبيا والاوليا
الموت فان الدنيا مزرعه الاخره وكلما كانت العبادات اكثر بطول العمر كان الثواب اجزل والنفس ازكى
واطهر والاخلاق اقوى وارسخ وانما مقصود العبادات تاثيرها في القلب وانما يتاكد اثارها بكثره المواظبه
على العبادات وغايه هذه الاخلاق ان ينقلع عن النفس حب الدنيا ويترسخ فيها حب الله تعالى فلا يكون
شي احب اليه من لقا الله تعالى فلا يستعمل جميع ما له الا على الوجه الذي يوصله اليه وغضبه وشهوته
من المسخرات له فلا يستعملها الا على الوجه الذي يوصله الى الله تعالى وذلك بان يكون موزونا بميزان
الشرع والعقل ثم يكون بعد ذلك فرحا به ومستلذا ولا ينبغي ان يستبعد مصير الصلوه
قرة عين ومصير العبادات لذيذة فان العاده تقتضي في النفس عجايب اعجب من ذلك فانا نرى
الملوك والمتنعمين في احزان دايمة ونرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من اللذه والفرح
بقماره وما هو فيه ما يستنكر معه فرح الناس بغير القمار مع ان القمار ربما سلب ماله وخرب داره
وتركه مفلسا ومع هذا فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول الفه له وصرف نفسه اليه مده وكذلك
اللاعب بالحمام قد يقف طول نهاره في حر الشمس قايما على رجليه وهو لا يحس بالمها لفرحه بالطيور
وحركاتها وطيرانها وتحليقها في جو السما بل نرى الفاجر العيار يفتخر بما يلقاه من الضرب والقطع
والصبر على السياط وعلى ان يتقدم به الى الصلب وهو مع ذلك متبجح بنفسه وبقوته في الصبر
على ذلك يرى ذلك فخرا لنفسه حتى يقطع الواحد منهم اربا اربا على ان يقر بما تعاطاه او تعاطى
عنده فيصر على الانكار ولا يبالي بالعقوبات فرحا بما يعتقده كمالا وشجاعه ورجوليه فقد
صارت احواله مع ما فيه من النكال قرة عينه وسبب افتخاره بل لا حاله اخس ولا اقبح من
حال المخنث في تشبهه بالاناث في نتف الشعر ووشم الوجه ومخالطه النسا وترى المخنث في

فرح بحاله وافتخاره بكماله في تخنثه يتباهى به مع المخنثين حتى يجري بين الحجامين والكناسين
التفاخر والمباهاه كما يجري بين الملوك والعلما وكل ذلك نتيجه العاده والمواظبه على نمط واحد
على الدوام مدة مديده والزم المواظبة عليه بل ميل النفس الى هذه الامور الشنيعة خارج عن
الطبع يضاهي الميل الى اكل الطين وقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة فاما ميله الى الحكمه
وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل الى الطعام والشراب فهو مقتضى طبع القلب فانه امر
رباني وميله الى مقتضيات الشهوات غريب من ذاته وعارض على طبعه وانما
غذا القلب الحكمة والمعرفة وحب الله تعالى ولكن انصرف عن مقتضى طبعه لمرض حل به كما يحل
المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب وهما سبب حيوته فكل قلب مال الى حب شي سوى حب
الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله الا اذا احب ذلك الشي لكونه معينا له على حب الله تعالى
وعلى دينه فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض فاذن عرفت بهذا قطعا ان هذه الاخلاق الجميله
يمكن اكتسابها بالرياضه وهي تكلف الافعال الصادره عنها ابتدا لتصير طبعا انتها وهذا من عجيب
العلاقه بين القلب والجوارح اعني النفس والبدن فان كل صفه تظهر في القلب فيفيض اثره على
الجوارح حتى لا تتحرك لا محاله الا على وفقها وكل فعل يجري على الجوارح فانه يرتفع منه اثر الى القلب
والامر فيه دور ويعرف ذلك بمثال وذلك ان من اراد ان يصير الحذق في الكتابة له صفه نفسيه
حتى يصير كاتبا بالطبع فلا طريق له الا ان يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب
عليه مده طويلة وهو حكاية الخط الحسن فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب
تكلفا ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير ذلك صفة راسخه في نفسه فيصدر منه بالاخره
الخط الحسن طبعا كما كان يصدر منه في الابتدا تكلفا فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسنا
ولكن الاول بتكلف الا انه ارتفع منه اثر الى النفس ثم انحدر من النفس اثر الى الجارحه فصار
يكتب الخط الحسن طبعا وكذلك من اراد ان يصير فقيه النفس فلا طريق له الا ان يتعاطى
افعال الفقها وهو التكرار للفقه حتى تنعطف منه على قلبه صفه الفقه فيصير فقيه النفس
فكذلك من اراد ان يصير سخيا عفيفا حليما متواضعا فيلزمه ان يتعاطى افعال هولا تكلفا حتى
يصير له بالعاده طبعا ولا علاج له الا ذلك وكما ان طالب فقه النفس لا ييأس من هذه الرتبه
بتعطيل ليله ولا ينالها بتكرار ليلة وكذلك طالب تزكيه النفس وتكميلها وتحليتها بالاخلاق
الحسنه لا ينالها بعبادة يوم ولا يحرم عنها بعصيان يوم وهو معنى قولنا ان الكبيره الواحده
لا توجب الشقاوه المويده ولكن العطله في يوم واحد تدعو الى مثلها ثم تتداعى قليلا قليلا
حتى تانس النفس بالكسل وتهجر التحصيل راسا فتفوته فضيله الفقه فكذلك صغاير
المعاصي

Copyright © King Saud University